موضع الدارك والعضلات موضع القوة فكلما طالت لزم لتحريكها قوة اعظم . وما آل ذلك كلهِ الى كَلَل الطويل وتباطوهِ في حركاتهِ

والمتوسط القامة أصبر على المتاعب والمشاق من طويلها اولاً لما تقدم من الخفة وقلة بذل القوة وثانياً لان جهازهُ التنفسي اعظم بالنسبة الى جسدهِ كما يُعرَف من نسبة طولهِ الى محيط صدرهِ مقيساً على الثندوتين . فكلما زائد محيط صدرهِ بالنسبة الى طولهِ كان أقدر على احتمال المشاق وأصبر على المتاعب ولذلك لم يكن الفرنسويون يقبلون بين جنودهم الجرية الاَّ مَنْ كان طول محيط صدرهِ بقدر نصف طول قامتهِ او اعظم . ولا يزال السويسريون يشترطون هذا الشرط الى هذا اليوم . ولما كان الطوال دون غيرهم سرعةً في الحركة ونشاطاً واحتمالاً للاتعاب وصبراً على المشاق كان المتوسّطون يفضّلون عليهم حيث تلزم تلك الصفات . ولذلك مدحوا في جيش فرنسا الجنود المتوسّطة القامة للجد والعمل والطويلة القامة لحسن الهيئة وكمال الهيبة

الحرب

النبذة الرابعة . في تاريخ جيوش المحدثين

ذكرنا في اواخر مقالة الحرب في الجزء الماضي ان اختراع البارود وانشاء الجيش الثابت في اوربّا كانا من اشهر ما أبطل النظام الالتزامي القديم وأدّى الى النظام الحربي الجديد . اما البارود وما اخترع لهُ من الاسلحة الناريّة وما طرأ عليها من التغيير والتحسين حتى صارت على ما هي عليهِ الآن فلا نتعرض لهُ هنا . واما انشاء الجيش الثابت في اوربّا فقد تقدّم ان شارل السابع ملك فرنسا هو اوّل من شرع فيهِ فبلغ عددهُ ستة عشر الفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان . ولما حارب شارل الثامن ايطاليا بهذا الجيش وقهرها ثبت لملك اوربا انهُ لا يُواقَف في ساحة القتال ولا يُقاوَى في النزال فاضطرّت ان تعدل عن نظامها الالتزامي وتعوّل عليهِ . وكانت الجنود تُستأجَر اولاً بالمال من المتطوعين غُرَباء كانوا او وطنيين وعلى توالي الايّام تجلّت صورة الامّة والوطنيّة لمدارك الافراد وربي حبها في نفوسهم فتطوعوا في جندتها وقلّ الاجنيّون

ولم يبتدئ القرن السادس عشر الاَّ وقد شاع النظام الجديد واستعمال الاسلحة الناريّة وجُعِلت الأُرطة عند المحدثين بمثابة الكردوس او الفوج او الفالنكس عند من سَلَفهم من الامم فصارت تعبية الجيش بالأُرَط . ووضع فرديناند وشارل الخامس ملكا اسبانيا قانوناً لجيشها وكذا فرنسيس الاوّل ملك فرنسا لجيشهِ وعينوا منزلة المشاة والفرسان من الجيش وعرفوا لزوم

كلٌّ منها لاعمال لا يستطيعها الآخر . وكانت الارطة في الاصل تشتمل على بضعة آلاف من الجند فتتألف من آلايات شتى ثم تجزأت بتغيُّر الاسلحة على كرور الايام حتى استقرَّ حالها على نصف الآلاي او ثلثهِ

وبتغير الاسلحة تغيَّرا عظيمًا من غرَّة القرن السادس عشر الى ختام القرن الثامن عشر تغيَّر تنظيم الجيوش وتعليمها وصفها وإدارتها وسياستها في القتال تغيُّرًا عظيمًا ايضًا نذكرهُ بوجه الايجاز والاجمال لضيق المقام . ففي الحروب التي حدثت في اوائل القرن السادس عشر كان كل الفرسان رمَّاحة وكذلك اكثر المشاة والقليلون منهم بالاسلحة الناريَّة . وفي الحروب التي حدثت في اواخر ذلك القرن واشهرها الحرب الهائلة المستطيلة التي استقلَّ بها اهل النذرلند وخلعوا نير اسبانيا عنهم زاد استعمال الاسلحة الناريَّة بايدي الجنود من مشاة وفرسان لزيادة تحسُّنها واتقانها عمَّا كانت عليهِ . ولذلك زاد امتدادهم في اصطفافهم ليكثر الجند في واجهة الجيش فيكثر اطلاقهم للبنادق خلافًا لاصطفاف الرماحة وتراصّهم قطعةً واحدةً لتشتبك رماحهم فلا يقف احد في طريقهم كما علمت في ما مرَّ . وفي الحرب التي شبَّت في المانيا في اوائل القرن السابع عشر فاستمرت الى اواسطهِ وهي حرب الثلاثين سنة (من ١٦١٨ الى ١٦٤٨) زاد استعمال الاسلحة الناريَّة كثيرًا وتحسَّنت صناعة الحرب تحسُّنًا عظيمًا ثم اخترعت السنكة في راس البندقيَّة فنابت مناب الرمح بيد الجنود وما زال استعمالها يعمُّ ويتزايد حتى استغنوا بها عن الرمح فبطل استعمالهُ . وثارت حينئذٍ حروب الفرنسويين في ايطاليا والمانيا والنذرلند وحروب العثمانيين في اوربا وذلك منذ سنة ١٦٤٨ الى ١٧٣٨ ومن جملتها حروب لويس الرابع عشر الطويلة التي نبغ في اثنائها خمسة من مشاهير قوَّاد العالم وهم تُورِن ولكسمبرج وكُندي واوجان ومَرلبرُو فاتقنوا صناعة الحرب ووسَّعوا نطاق سياستها ونظامها وضمُّوا الارطة فانشأوا منها الالوية والفرق وتعاظمت الجيوش في العدد والعُدَد حتى صار جيش لويس الرابع عشر ١٢٨ الف مقاتل وكان في زمان سلفهِ بضعة عشر الفًا فقط . ومن جملتها ايضًا حروب شارل الثاني عشر ملك اسوج وبلغ مشاة الاسوجيين في زمانهِ اسمى درجة بين اقرانهم في حسن التعليم واتقان الترتيب والتدريب وكمال النظام

وفي الحروب التي شبَّت في اواسط القرن السابع عشر بين فردريك الكبير ملك بروسيا ومملكة سليسيا وحروب السبع السنين المسع بينهُ وبين النمسا (وذلك من ١٧٤٠ الى ١٧٦٣) ارتقت صناعة الحرب ارتقاء عظيمًا وقد نسبوا معظم ذلك الارتقاء الى فردريك الكبير نفسهِ واغفلوا ما تمَّ منهُ عن يد ليوبولد دو داسّو قائد جيوش ابيهِ الذي جعل صفوف المشاة ثلثة وسهَّل عليهم اطلاق السلاح بالسرعة وضبط الرمي بهِ بالمزاولة وألَّف لتعليمهم وتمرينهم اشهر كتاب في صناعة تعليم

الجنود وعنه اخذ سائر مَنْ ألَّف في هذا الفن . واما التحسين في نظام الفرسان وتعليمهم وتربيتهم فلفردريك الكبير كل الفضل فيه فانهُ هو الذي كشف سرَّ القوَّة والسرعة وشدَّة الصدمة في الفروسيَّة فابلغ الفرسان اليها واصحبهم بالمدافع تُحمل على ظهور الخيل لتردَّ عنهم وتدفع العدو امامهم . ولذلك لم يتمَّ فردريك الكبير ملكهُ الاَّ وقد صار جيشهُ نخبة الجيوش وزينتها ونظامهُ وترتيبهُ المثال الذي يقتدى بهِ والغاية التي يُسعَى لبلوغها . فكان المشاة في جيشهِ مقسومين الى الايات والالاي الى ارطتين او ثلث والارطة مؤلَّفة من ٥٠٠ الى ٦٠٠ جنديّ . والفرسان مقسومين ايضًا الى الايات والالايات الى بُلكات والبُلك يحتوي من ١٠٠ الى ١٥٠ فارسًا . واما المدافع فكانت يومئذٍ في بدء شيوعها تُلحَق بالالايات ويحمل الثقيل منها على ظهور الخيل . ولم يمضِ الكثير حتى استنبط غريبوفال الفرنسوي نظام المدفعية (الطوبجية) الشائع في زماننا فاقتبسته الممالك واحدة بعد اخرى

ولم يكن حينئذٍ جيش يُذكر الاَّ جيش بروسيا حتى شبَّت نار الثورة الفرنسوية وتحالف ملوك اوربا لاخماد نارها ودفع غائلتها وكانت جيوش فرنسا يومئذٍ مبدَّدة وقوتها الحربية في حال من الضعف لا غاية بعدها فنادوا في البلاد ان الوطن في خطر من الاعداء فتقاطر الرجال للدفاع متبرّعين ولم يمضِ ثلث سنوات الاَّ اجتمع من المتطوّعين جيش عددهُ مليون ومئتا الف مقاتل . فقاتل الاعداء تحت قيادة هوش ومورو وبونابارت وآب منصورًا فائزًا سنة ١٧٩٧ . غير ان الحروب افنت اكثرهُ ولذلك رأى جوردان ان يجند الجند بالاكتتاب والقرعة فثبت رأيهُ شرعًا سنة ١٧٩٨ . وعلى رأيهِ جرى باقي الدول في قوانينهم المتعلقة بحشد الجنود . وبالاكتتاب والقرعة تمكن نابوليون من انجاز ما انجز من الحروب ومن احتشاد ما شاء من الجنود . وشاهد ذلك حربهُ مع الروس وهلاك جيشهِ في ثلوج بلادهم وكان جيشًا جرارًا لم يسبق لهُ مثيل في الكثرة مع النظام فانهُ ما لبث ان رجع الى بلادهِ حتى عاد فزحف بجيش جرّار يقارب الاوَّل عددًا . ولذلك لم يبقَ لسائر الدول الاَّ ان تدين لهُ او تجمع جيشها بالاكتتاب والقرعة حاذيةً حذوهُ . غير ان بروسيا عادت فسبقت فرنسا باستنباطها التجنُّد الاحتياطي فانهُ لمَّا اكرهها بونابارت بمعاهدة تلسيت على ان لا تزيد جيشها عن ٤٢ الفًا حافظت على المعاهدة ولكن قصَّرت مدَّة الخدمة العسكرية وكانت كلَّما علَّمت فوجًا من جنودها تطلقهُ على ان يعود حين الطلب وتجمع آخرين مكانهُ وتعلمهم كما علَّمتهُ . فبقي جيشها ٤٢ الفًا ولكن عمَّ التعليم كل بالغ فيها . الاَّ ان الدوَل لم تحذُ حذوها حتى رأت ما كان من حسن قتال جنودها وصبرهم على المكاره في حربَي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ الى ١٨٧١ فاقتبست نظامها